بين "سوسيـر" و"بورس"

بلعباس عبد القادر

جامعة تلمسان - الجزائر

• تمهيـد

تعتبر السيميائيات منهجا نقديا هامّا، ساهم بقسط وافر في تجديد الوعي النقدي في الغرب وبدرجة أقل عند العرب، نظرا للآليـات التي تبنّتها في التعامل مع النصوص، والنظرة الثاقبة التي استندت إليها في تحليل الفعل الإنساني.

فهي بهذا المنظور لم تكن ثورة على ما أفرزته الحركة النقدية السالفة ولم تلغ نتاجها، كما اعتقد ذلك الكثير من القراء الذين ظلّوا يحنون إلى القديم، رافضين كل جديد، والذين ظل الأستاذ رشيد بن مالك* يعتبر ردّ فعلهم (السلبي) أسوأ ما اعترضه في بداية عهده بتدريس المنهج والتعريف به، وقد كرّر ذلك كثيرا في كتبه ومحاضراته، ومن جملة ما قال :

«وكلّ هذا يشتغل في الاتجاه المعاكس تمامًا للقناعات الراسخة في الأذهان، والتي لا زالت تغذي الممارسات النقدية في كثير من

المؤسسات التعليمية العربية، وتشيّد هذه القناعات على دراسة حياة الأديب وظروفه، وأسلوبه الجزل وعاطفته الفياضة والجياشة والملتهبة، ويتوّج هذا البحث العلمي بالحكم على عاطفة الأديب، هل هو صادق في تعبيره، أم غير صادق ؟

إنّنا نعيش وضعية لا يرغب فيه القديم أن ينسحب من حاضر يلقى فيه الجديد صعوبة كبيرة في الانطلاق بحريّة من قواعد خلفية تدعمه وتعزز ما تم إنجازه»[1].

والواقع أنّ هؤلاء كانوا يعيشون حالة مرضية هستيرية، ساد الاعتقاد معها، أن لا خير ممّا نسجه الأولون، ولا أصلح من الأدوات النقدية، التي كانوا يوظفون، في سبر أغوار النصوص، والكشف عن أسرارها، وهي في حقيقة الأمر أدوات، عادة ما كانت تؤدي إلى أحكام متشابهة، وتحاليل نمطية، فأثبتت عجزها عن التمييز بين النصوص الجيّدة والرّديئة.

1. حول السيميائيات

إنّ السيميائيات تصوّر نقدي آخر، قدّم مقترحات أسهمت في نقل القراءة المتفحصة، من وضع الانطباع والانفعال العرضي الزّائل، والكلام السفسطائي الذي يقف عند الإنشاء، والوصف المباشر للوقائع النصّية، إلى التحليل المقنن والمؤسس معرفيا وجماليا.

إنّها إجراء دلالي، وهو ما جعل علوم كثيرة كالانثرويولوجيا، والتاريخ، والتحليل النفسي، تتبنّى نتائجها التطبيقية والنظرية، وتحضر بقوّة عند الكثيرين، ممن يشتغلون بالنص السردي، الذي يسمح لهم وبسهولة متناهية - مثلا - التمييز بين أصناف زمنية، وأخرى فضائية، وباقي العناصر المشكلة للنصّ.

لقد حمل الكثير من النقاد في الغرب وفي الوطن العربي لواء المنهج السيميائي، ولم تكن عملية نشره وترويجه بين القراء بالأمر السهل الهيّن، شأنه في ذلك شأن أي مولود جديد، وما النتاج الّذي يصادفنا -دوريا- في المجلات والجرائد، إلاّ خير دليل على ذلك.

فضّلنا الخوض في من كان لهم الفضل في الشرارة الأولى، والتبشير بهذا المنهج، ونعني بذلك "سوسير" و"بورس".

لقد عاشا في نفس الفترة التاريخية تقريبا، ورغم أنهما لم يلتقيا، ولم يدرس أحدهما عن الآخر، إلاّ أنّ جلّ الباحثين، يجمعون أنّ معطياتهما كانت متقاربة، ومنسجمة في الكثير من الأحيان، فكلاهما أسّس لعلم السيميائية، انطلاقًا من الحديث عن العلامة وتصنيفاتها، وميادين تنظيرها وتطبيقها، وكلاهما أسهم في إنعاش الحركة النقدية والمعرفية في الغرب.

2. سيميائيات "فاردينا ندي سوسير"

إنّ "فاردينا ندي سوسير"*(1857-1913)، رغم كونه لم يوظف السيميائية في كتاباته، إلاّ أنّنا نستشف إيحاء الرجل، بظهورها كمنهج نقدي، سيكتب له النجاح والتفوّق مستقبلا، وذلك حين أشار إلى السيميلوجيا أثناء تعريفه للّسان قائلا :

«إنّ اللّسان نسق من العلامات المعبّرة عن أفكار، وهو بذلك شبيه بأبجدية الصّم والبكم، وبالطقوس الرّمزية، وبأشكال الآداب، والإشارات العسكرية، إلاّ أنّه يعدّ أرقى هذه الأنساق، ومن هنا تأتي إمكانية البحث عن علم يقوم بدراسة هذه العلامات داخل الحياة الاجتماعية، ويمكن أن نطلق على هذا العلم السيمولوجيا، وستكون مهمته، هي التّعرف على كنه هذه العلامات، وعلى القوانين التي

تحكمها. وبما أنّ هذا العلم لم يوجد بعد، فإنّنا لا نستطيع التنبؤ بالشكل الّذي سيتخذه، إنّنا نسجل فقط حقّه في الوجود، ولن تكون اللّسانيات سوى جزء من هذا العلم، وستنطبق قوانينه الّتي سيتمّ الكشف عنهاعلى اللّسانيات»[2].

نستشف من هذا القول، بأنّ سوسير سيبشّر بعلم جديد، أطلق عليه السيميولوجيا، سيتولى دراسة حياة العلامات، داخل الحياة الاجتماعية، ويمكّن من تحليل أنساق ليست بالضرورة من طبيعة لسانية.

وبالتالي سيتّسم بالشّمولية، ولن تشكّل اللسانيات إلاّ فرعًا من فروعه، عكس ما ذهب إليه يارث حين اعتبر فضاءها أي «السيميولوجيا، أضيق من اللّسانيات»[3].

لقد ركّز سوسير على اللسان، وعدّه أرقى شكل داخل العلامات على الإطلاق، وأنّه الأداة الوحيدة لفهمها وتأويلها، ومعرفة طرق اشتغالها، لذا وضعه في أعلى هرم التواصل، وتبادل الخبرات الإنسانية، وكشف عن قوانينه، واعتبرها هي نفسها التي تقود إلى معرفة قوانين الأنساق الأخرى.

وذكر من هذه الأنساق، الإشارات العسكرية، أبجدية الصمّ والبكم، وأشكال الآداب، والطقوس الرّمزية.

«إنّ اللسان في نظر سوسير، ليس كلمات تتناسب وواقع الأشياء في العالم الخارجي، أي مجرد مدوّنة وكفى، إنّما هو مؤسسة اجتماعية كالمؤسسات الأخرى، التي ابتكرها المجتمع، فأودعها قيمه وأخلاقه وفكره وحضارته، تختلف عنها، فقط، في كونها سيرورة اجتماعية، يصعب تحديد بدايتها، ولا يمكن تصوّر نهايتها»[4].

لقد اعتبره تعاقدا اجتماعيا، وهذا ما جعله يشبّه العلامة اللسانية بالقطعةالنقدية، التي تسمح لنا، من جهة، باقتناء بضائع ما، ومن جهة أخرى، بتحديد قيمتها داخل النظام النقدي الذي تنتمي إليه.

وفي سياق حديث سوسير عن اللسان، اعتبر العلامات أداة رئيسة في تحديد جوهره، وموقعه من الفعل الفردي والجماعي، بَيْد أنّها لا تملك معنى بقدر ما تملك استعمالا، ولا تربط بين اسم وشيء، بل تربط بين ما يطلق عليه الدال والمدلول.

إنّ الدال عنده، صورة سمعية مشتقة من كيان صوتي، وأنّ هذا الكيان مطبوع ببصمة نفسية، تلتقطها أذن المتلقي. أمّا المدلول فهو التصوّر الذهني الذي نملكه عن شيء ما في العالم الخارجي، إنّه ليس شيئا، ولا يمكنه أن يكون كذلك، إنّه صورة مجردة ، يمنحها اللسان إلى الشيء عبر التّسمية.

«ويؤكّد سوسير أنّ العلاقة بين الدال والمدلول، هي علاقة اعتباطية، غير قائمة على منطق عقلي، وأنّ اختيار الأصوات، لا تفرضه مقتنيات المعنى، وإنّما يفرضه العرف، وثقافة المجتمع، ففكرة "ليث" لا تربطها أيّة علاقة داخلية، مع المتوالية الصوتية / ل ، ي ، ث / التي تعتبر دالا لها، فبالإمكان التمثيل لها بأيّة متوالية صوتية أخرى»[5].

إنّ المفاهيم التي استند إليها سوسير في تعامله مع الأنساق اللسانية، كاللسان، والكلام ، والدال، والمدلول، والاعتباطية، والتوزيع والاستبدال ... هي نفسها التي تبناها في السيميولوجيا، وهو العلم الذي أفرده لدراسة العلامات غير اللسانية، التي تخلّت عن وظيفتها الأصلية إلى حامل مادي لدلالات، هي وليدة الممارسة الإنسانية، وثقافة المجتمع.

فالوضع الأصلي للعلامات قد ينسى مع كثرة الاستعمال، ويحل محله وضع جديد، هو الذي يتبنّى، لأنّ سلوكات البشر تحكمها اعتبارات عملية أكثر منها رمزية.

إنّ الوضع الجديد، هو تعبير عن دلالات جديدة، نتجت عن فعل، وهذا الفعل الذي يتسبب في وجود الدلالات، استنادا إلى العرف الجماعي، هو ما يطلق عليه في المصطلح السيميائي بالسميوز "Semiosis".

3. سيميائيات شارل سندرس بورس

تحدث الفيلسوف الأمريكي شارل سندرس بورس (1839 - 1914) عن السميوز واعتبره «سيرورة تؤدي إلى إنتاج الدلالة، ونسيجا من العلامات، يحدّد هويتها مفهوم العلامة»[6].

فالدال باعتباره أداة التعرف الأولى، ينتج مدلولا وفق علاقة مبنية على ترابط اعتباطي، والوظيفة الأصلية للعلامة، هي وظيفة اختلافية، منبثقة عن علاقة، وليست حصيلة لمادة دالة بذاتها، كما أنّ المعنى، ليس محايثا للشيء ولا سابقا عليه، بل هو حصيلة ما تضيفه الممارسة الإنسانية إلى الوجود المادي الذي يميّز الأشياء.

إنّ الترسيمات الثقافية السابقة في رأي "بورس"، هي التي تمكننا من التعرف على ما يوجد خارجنا، ونمنحه اسما وصفة، ونقيم له موقعا مجردا داخل ذاكرتنا الإنسانية، أي نموذجا، وإذا غاب هذا النموذج، غابت معه إمكانية فهم العالم الخارجي، واستيعاب صوره المختلفة.

فإذا أحيل بينك وبين شيء، وليكن هذا الشيء حيوانا، وطلب منك التعرف عليه، فإنّك ستستنجد - لا محالة - بتجاربك السابقة، وتستحضر مميّزاته وأشكاله، باعتباره نموذجا، وتتعرّف عليه بسهولة، أمّا إذا كان الأمر يتعلق بحيوان، لا علاقة له بثقافتك، فقد يكون لك حكم آخر خاطئ، ما في ذلك شكّ.

«فالذاكرة الإنسانية تقود إلى إنتاج السلوك السيميائي وتقعيده، باعتباره حالة ثقافية، تعدّ نقيضا لكل معنى، طبيعيا كان أم بيولوجيا»[7].

فالعين تبصر، ولا تنتج بهذه الوظيفة سلوكا رمزيا، أي سيميائيا، ولكن حين تغمز (والغمز هو الإشارة بالعين والحاجب والجفن)، فإنّها ستنتقل من الفعل البيولوجي، إلى السلوك السيميائي الذي فرضته الترسيمة الثقافية، فلا علاقة للغمز بالفعل البيولوجي، إلا من حيث السند المادي.

لقد اعتبر بورس السيميائيات منطقا ، لكونها تتبنّى طرقا استدلالية، يستند إليها في الحصول على الدلالات وتداولها، وتبحث في الأصول الأولية للمعنى الصادر عن الفعل الإنساني، كما ربطها بعمليات الإدراك التي تدفع بالإنسان إلى التحليق في عالم خارجي مليء بالمفاجآت، وألحق جميع أفعاله إلى إحدى المقولات التالية :

- **المقولة الأولانية** : وتشير إلى إمكانية الفعل فقط، أي إلى حالة شعورية محتملة التحقق، فالإنسان السعيد كانت سعادته حالة شعورية محتملة قبل حدوثها.
- **المقولة الثانيانية** : وتشير إلى التحقق الفعلي، أي ترجمة الأحاسيس إلى واقع ملموس.
- **المقولة الثالثانية** : وتتمثل في القوانين التي يستند إليها في التعرف على الوقائع، وتجعلنا نؤول سلوكا ما، باعتباره دالا على السعادة، لا على التعاسة.

إنّ هذه المقولات الثلاث، تشير إلى سيرورة إدراكية غير مرئية، صاغها "بورس" على النحو التالي : «أول يحيل على ثان عبر ثالث»[8].

أي أنّ الأحاسيس تتجسد في واقع عبر قانون، أو قاعدة تسمح بذلك. إذا كان "سوسير" يستبعد المرجع في تعريفه للعلامة، ويعتبره معطى غير لساني، فإنّ "بورس" يعتبرها وحدة ثلاثية المبنى، تجسّد ما تراه العين، ويتصوّره الذهن، وينطق به اللسان. أي أنّها تعبّر عن تجربة إنسانية شاملة، متضمنة للأفعال والمعتقدات، والشكوك واليقين، ولا تختصر في اللسان فقط.

فتحدّث عن الماثول والموضوع والمؤول، أمّا الماثول فيقوم بنفس وظيفة الدال في المنظور السوسيري، أي تمثيل الشيء، وإعطائه مفهوما معيّنا، وبدونه لا يمكن أن يتحوّل الشيء إلى علامة، فالمتوالية الصوتية : ش / ج / ر / ة هي ماثول يحيل على المؤول / شجرة / أي على مفهوم الشجرة.

وأمّا الموضوع، فهو الشيء الممثل، سواء كان هذا الشيء واقعيا، أو صوريا، أو قابلا للتخيّل. ويلخص "بورس" هذه الملاحظة، قائلا :

«إنّ موضوع العلامة هو المعرفة التي تفترضها العلامة، لكي تأتي بمعلومات إضافية، تخصّ هذا الموضوع»[9].

ويوضّح هذا التعريف بقوله : «إذا كان هناك شيء يحدّد معلومات، دون أن تكون لها أدنى علاقة بما يعرف الشخص لحظة بثها، فإنّ الأداة الحاملة لهذه المعلومات، لا تسمى علامة»[10].

أمّا المؤول : فهو الصورة الذهنية، التي نملكها عن الشيء الموجود في العالم الخارجي، فهو شبيه بالمدلول في تصوّر "سوسير"، أنّه هو الذي يرسخ العلامة، ويحدّد صحتنا، ويجعل الانتقال من الماثول إلى الموضوع أمرا ممكنا، أي أنّه عنصر توسطي بينها، وهو ما يعني أنّ العلاقة بين الإنسان ومحيطه معرفة مسبقة.

وبناء عليه، يمكن تحديد المؤول، بأنّه تكثيف للممارسات الإنسانية، أو مجموعة الدلالات المنتجة، من خلال سيرورة سيميائية سابقة، ومثبتة داخل هذا النسق أو ذاك.

ويميّز بورس بين ثلاثة مستويات للمؤول، أمّا الأوّل، فيطلق عليه المؤول المباشر، وهو معنى العلامة في حدّ ذاته، وما تدلّ عليه، وعناصر تأويله، لا تعدو أن تكون ضمنها بشكل مباشر.

وأنّ وظيفته الإنسانية ، هي إعطاء نقطة الانطلاق لكلّ دلالة.

فالجملة الآتية : بحيرة عظيمة، تدرك باعتبارها إحالة على أرض منخفضة شاسعة، تجمعت بها كميّة هائلة من المياه، تصدر عن روافد، وهي موصوفة بالعظمة.

أمّا المستوى الثاني، فيطلق عليه المؤول الدينامي، أي المستوى الذي يأخذ فيه التأويل كلّ أبعاده، و يتحوّل إلى سيرورة لا متناهية من الدلالات، فالعالم بأشيائه، الصوري منه والواقعي، يشتغل في نظره كعلامات، وأنّه لا يدرك إلا باعتباره سلسة من الأنساق المتداخلة بينها.

أمّا المستوى الثالث، وتتمثل وظيفته الأساسية في التخفيف من حدّة القوّة التأويلية للمؤول الدينامي، وكبح جماحها، فإذا كان هذا الأخير يتصرّف بنوع من الفوضى، بإدخال الدلالة داخل سيرورة اللا متناهي، وكان ولا بدّ من الاستنجاد بمنطق آخر للتدليل، يرسي تقليد الحذف والانتقاء، فإنّ المستنجد به هو مؤول المستوى الثالث، وقد أطلق عليه "بورس" المؤول النهائي، وهو الذي يتحوّل من خلاله اللامحدود إلى حركة محكومة بقوانين محدودة، تجعل كلّ إحالة مندرجة ضمن منطق خاص للإحالة.

4. استنتاج

إنّ ما ذكرنا عن "سوسير" و"بورس" هو غيض من فيض، أي هو عرض للأسس المركزية، لبناء العلامة واشتغالها فقط، باعتبار أنّ لهما عناصر نظرية كثيرة، وقد توصلنا إلى قناعة، مؤداها أنّ كليهما قد نظر إلى الدلالة، باعتبارها سيرورة في الوجود والاشتغال والتداول، فهي لا يمكن أن تكون معنى سابقا أو لاحقا للفعل الإنساني. إنّها الفعل ذاته، فكل فعل ينتج سلسلة من القيم الدلالية لحظة تحقّقه، فإنّ هذه القيم تستند في وجودها -حتما- إلى العرف الجماعي.

فالعلامة عند "سوسير"، كما هي عند "بورس"، حصيلة لعلاقة بين الحدود، تعود في أصلها إلى محاولة استيعاب المعنى التجريبي، ونقله إلى عالم المفهمة التي يصوغ حدودها اللسان الطبيعي.

إنّ هذا التناغم الموجود بين العالمين، فرض رغم تباين اختصاصهما واختلافه، "فسوسير" كان ألسنيا بالدرجة الأولى، وأما "بورس" فكان فيلسوفا، ودليل ذلك ورود سيميائيته مطابقة لعلم المنطق، يقول "أمبرطو يكو" (Umberto Eco) مؤكدا هذا الحكم: «لنستمع الآن إلى "بورس": إنّني حسب علمي الرائد، أو بالأحرى، أوّل من ارتاد هذا الموضوع، المتمثل في، أي نظرية الطبيعة الجوهرية "السيميوطيقا" (Semiotic) تفسير وكشف ما سميته والأصناف الأساسية لأي سيميوز محتمل، إنّ هذه السيميوطيقا التي يطلق عليها في موضع آخر"المنطق"، تعرض نفسها كنظرية للدلائل. وهذا ما يربطها بمفهوم السيميوزيس، الذي يعدّ على نحو دقيق الخاصيّة المكونة للدلائل»[11].

الإحالات

* ـ مدير مركز البحث العلمي والتقني . لتطوير اللّغة العربية. الجزائر.

1- مجلة بحوث سيميائية ـ العدد ـ 2 ـ ديسمبر 2006 ـ مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر، جامعة أبي بكر بلقايد ـ تلمسان.

2- السيميائيات ـ مفاهيمها وتطبيقاتها ـ سعيد بن كراد ـ منشورات الزمان، الرباط 2003 ف $_2$ ـ السيميولوجيا علم العلامات ـ صفحة المؤلفات، الموقع الالكتروني، سعيد بن كراد، بتاريخ 12 ـ 01 ـ 2009 ، على الساعة.

3- مفهوم السيميائيات، عبد الرحيم جيران ـ الحوار الأكاديمي والجامعي، العدد ـ 1 ـ يناير 1988 ـ ص 7.

4- السيميائيات ـ مفاهيمها وتطبيقاتها ـ سعيد بن كراد ـ منشورات الزمان، الرباط 2003 السيميولوجيا علم العلامات ـ صفحة المؤلفات، الموقع الالكتروني، سعيد بن كراد، بتاريخ 14 ـ 01 ـ 2009، على الساعة 21.

5- المرجع نفسه ـ الفصل (2) ، ص 2.

6- Sémantique Interprétative ـ François Raster, ed , P.U.F Paris Veran 1979 .

7- محاضرات في السيميولوجيا، محمد السرغيني، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 1987، ص 55.

8- السيميائيات ـ مفاهيمها وتطبيقاتها ـ سعيد بن كراد ـ منشورات الزمان، الرباط 2003 ف 3، بورس السيميائيات نظرية تأويلية، الموقع الالكتروني، سعيد بن كراد، بتاريخ 14 .01. 2009، على الساعة 20.

9- المرجع نفسه، الفصل (3) ، ص 3.

10- المرجع نفسه، الفصل (3)، ص 4.

11-Sémiosis de l'idéologie et du pouvoir, in communication ,Eliseo Veran 1979, p 12 .